

ملحمة جلجامش،^[1] قصيدة ملحمية من آداب بلاد الرافدين القديمة وتُعدّ أقدم الأعمال الأدبية العظيمة ، يبدأ التاريخ الأدبي لملحمة جلجامش بخمس قصائد سومرية عن (بل كاميش / كلكاميش)، ملك الوركاء، يعود تاريخ الملحمة إلى عصر سلالة أور الثالثة. استُخدمت هذه القصص المتفرقة فيما بعد كمصدر مرجعي لقصيدة ملحمية مجمعة في اللغة الأكديّة. تحمل أقدم نسخة متبقية من تلك الملحمة المسمّاة اسم «البابلي القديم»، ويعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، لم يتبقّ من تلك القصيدة سوى بضعة ألواح طينية. أما النسخة التالية «القياسية» التي جمعها سين-لقي-ونيني يعود تاريخها إلى ما بين القرنين الثالث عشر والعاشر قبل الميلاد وتحمل الاسم (هو الذي رأى)،

تقريباً تمّ استرجاع ثلثي هذه النسخة ذات الألواح الطينية الاثني عشر. اكتُشفت بعض النسخ الأفضل حالاً في أنقاض مكتبة آشور بانيبال الملكية من القرن السابع قبل الميلاد.

يدور القسم الأول من القصة عن جلجامش، ملك الوركاء، وإنيكدو، وهو رجل جامع خلقته الآلهة لوضع حدّ لطغيان جلجامش على شعب الوركاء. بعد أن يتأنس إنيكدو عبر إقامته علاقة جنسية مع مومس، ينطلق إلى مملكة الوركاء، حيث يطلب تحديّ جلجامش لاختبار مقدار قوته. يفوز جلجامش في التحدي، ومع ذلك، يصيح الرجلان صديقين، وينطلقان معاً في رحلة تدوم لستة أيام إلى غابة الأرز السحرية، حيث يخططان لقتل الحارس، خومبابا الرهيب، وقطع شجرة الأرز المقدسة.^[2] تُرسل الإلهة عشتار ثور الجنة لعقاب جلجامش على رفضها التقرب منه. يقتل جلجامش وإنيكدو ثور الجنة، وعلى إثر ذلك يتخذ الآلهة قرارهم بالحكم على إنكيدو بالموت، ويقتلونه.

في الجزء الثاني من الملحمة، يدفع الأسي على موت إنكيدو بجلجامش إلى القيام برحلة طويلة محفوفة بالمخاطر لاكتشاف سرّ الحياة الأبدية. في نهاية المطاف يكتشف أن «الحياة التي تسعى في إثرها لن تنالها أبداً. لأن الآلهة عند خلقها البشر، جعلت الموت من نصيبهم، واستأثرت بالخلود نصيباً لها وحدها.

على أيّ حال، فقد طارت شهرة جلجامش في الأفاق، وعمّرت طويلاً بعد موته، بسبب مشاريعه العمرانية العظيمة، ونقله لنصيحة أسدتها له سيدوري، وما أخبره إياه الرجل الخالد أوتنابيشتم عن الطوفان العظيم؛ ولقيت قصة الملحمة اهتماماً متزايداً وترجمت إلى العديد من اللغات وتظهر في العديد من الأعمال الأدبية الشهيرة.

تبدأ الملحمة بالحديث عن جلجامش، ملك أورك - الوركاء الذي كانت والدته إلهة ووالده بشرا فانيا ولهذا قيل بأن ثلثيه إله وثلث الباقي بشر. وبسبب الجزء الفاني منه يبدأ بإدراك حقيقة أنه لن يكون خالداً. تجعل الملحمة جلجامش ملكاً غير محبوب من قبل سكان أورك؛ حيث تنسب له ممارسات سيئة منها ممارسة تسخير الناس في بناء سور ضخم حول أورك العظيمة.

ابتهل سكان أورك للآلهة بأن تجد لهم مخرجا من ظلم جلجامش فاستجابت الآلهة وقامت إحدى الإلهات، واسمها أرورو، بخلق رجل من الطين وحي كان الشعر الكثيف يغطي جسده ويعيش في البرية يأكل الأعشاب ويشرب الماء مع الحيوانات؛ أي أنه كان على النقيض تماما من شخصية جلجامش. ويرى بعض المحللين أن هناك رموزا إلى الصراع بين المدنية وحياة المدن الذي بدأ السومريون بالتعود عليه تدريجيا بعد أن غادروا حياة البساطة والزراعة المتمثلة في شخصية أنكيدو.

كان أنكيديو يخلص الحيوانات من مصيدة الصيادين الذين كانوا يقتاتون على الصيد، فقام الصيادون برفع شكواهم إلى الملك جلجامش؛ فأمر إحدى خادمتي المعبد بالذهاب ومحاولة إغراء أنكيديو ليمارس الجنس معها؛ وبهذا تبتعد الحيوانات عن مصاحبة أنكيديو ويصبح أنكيديو مروضاً ومدنياً. حالف النجاح خطة الملك جلجامش، وبدأت خادمة المعبد - وكان اسمها شمخات، وتعمل خادمة في معبد الآلهة عشتار - بتعليم أنكيديو الحياة المدنية؛ ككيفية الأكل واللبس وشرب النبيذ، ثم تبدأ بإخبار أنكيديو عن قوة جلجامش وكيف أنه يدخل بالعروضات قبل أزواجهن. ولما عرف أنكيديو بهذا قرر أن يتحدى جلجامش في مصارعة ليجبره على ترك تلك العادة. يتصارع الاثنان بشراسة؛ فهما متقاربان في القوة، ولكن الغلبة في النهاية كانت لجلجامش، حيث اعترف أنكيديو بقوة جلجامش، وبعد هذه الحادثة يصبح الاثنان صديقين حميمين.

يحاول جلجامش دائماً القيام بأعمال عظيمة ليبقى اسمه خالداً؛ فيقرر في يوم من الأيام الذهاب إلى غابة من أشجار الأرز؛ فيقطع جميع أشجارها، وليحقق هذا عليه القضاء على حارس الغابة، وهو مخلوق ضخم وقبيح اسمه خومبابا. ومن الجدير بالذكر أن غابة الأرز كان المكان الذي تعيش فيه الآلهة ويعتقد أن المكان المقصود هو غابات أرز لبنان.

موت انكيدو وحزن جلجامش عليه وسميه وراء الخلود :

والى هنا كان كل شيء يبدو للبطلين وكأنه على ما يرام ، ولكن ما قاما به أزاء سيدة الآلهة عشتار قد تجاوز المدى لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات ما بين الآلهة والبشر . فلم تدع الآلهة ذلك الحدث دون انزال العقاب بالمذنبين . وقد بدأت النذر والرؤى تنذر البطلين بما يتته لهما اقدار الآلهة ، فكان مما رآه « انكيدو » من الاحلام أن الآلهة اجتمعوا في مجلس شوراهم ليقروا أي من الاثنين ينبغي أن يعاقب بالموت ، فوقع

الحكم على « انكيدو » ، رغم اعتراض الاله « شمش » . وسرعان ما بدأت
النذر تتحقق ، فقد حل بانكيدو مرض الموت ، وادرك قرب نهايته ، وأخذت
توارد عليه الخواطر والذكريات فود لو انه ما جاء الى الحياة الحضرية
بل ظل في باديته سعيدا خالي البال ، يجول مع الطباء وحيوان البرية ،
وأخذ يكيل اللعنات على الصياد الذي جاء اليه بالبغي ، ويلعن البغي التي
زينت له المجيء الى حياة المدينة في الوركاء . وكان مما قاله عن الصياد
داعيا عليه الاله « شمش » : « أسلب الصياد ماله وأحل به الضعف والوهن
... وعسى أن يفر منه كل صيد يروم اقتناصه » . ثم وجه لعناته على
البغي : « تعالي أبتها البغي أقدر لك مصيرك ، وهو مصير لن ينتهي
الى الابد ... ليكن طعامك من فضلات المدينة ، وستكون زوايا الدروب
المظلمة مأواك ، وفي ظل الجدار سيكون وقوفك ، وسيلطم الصاحي
والسكران خدك ، وعسى أن يبذك عشاقك بعد أن يقضوا وطهرهم من
سحر جمالك » ... ولما ان سمع الاله شمش كلامه خاطبه من السماء
قائلا : « علام تلعن البغي يا انكيدو ؟ » تلك التي علمتلك كيف يؤكل
الخبز اللائق بالالوهية ، واسقتك خمرا يليق بالملوكية ، واعطتك جلعامش
الوسيم خلا وصاحباً ، ... ولما سمع جلعامش الاله « شمش » هدأت
سورة غضبه فبدل اللعنات بركات وقال : « سيحبك الملوك والامراء
والعظماء ... ولن يضرب أحد فخذه مستميا اياك ، ومن أجلك سيهز
الشيخ لحيته ، وسيحل الشباب احزمتهم من أجلك ، وسيقدمون لك
اللازورد والعقيق والذهب ... ومن أجلك ستهجر الزوجة ولو كانت
أم سبعة .. » .

ثم اشتد المرض بانكيدو ولازم فراش المرض وصار يبث أحزانه
وشكواه الى صديقه ، فكان مما قاله له : « يا أخي رأيت الليلة الماضية
رؤيا : كانت السماء ترعد فاستجابت لها الارض ، وكنت واقفا وحدي

فظهر أمامي مخلوق مخيف مكفهر الوجه • كان وجهه مثل وجه طير
الصاعقة « زو » ومخالبه مثل اظفار النسر • لقد عراني من لباسي وأمسك
بي في مخالبه وأخذ بخناتي حتى خمدت انفاسي ••• لقد بدل هيتي
فصارت يداي مثل جناحي الطائر مكسوتين بالريش (*) • لقد امسك بي
وقادني الى دار الظلمة ، الى مسكن « ايراكلا » (*) ، الى الدار التي
لا يرجع منها من دخلها ••• الى البيت الذي حرم ساكنوه من النور ،
حيث التراب والطين قوتهم وهم مكسوون كالطيور بأجنحة من الريش ،
ويعيشون في ظلام لا يرون نورا ، وفي بيت التراب الذي دخلت شاهدت
الملوك والحكام وقد نزع تيجانهم وكدست على الارض ••• وكان نواب
« آنو » و « انليل » وخدمهم الذين يقدم لهم شواء اللحم والخبز ويسقون
الماء البارد من القرب ••• وحلت نهاية « انكيدو » ، فحزن عليه صاحبه
« جلجامش » وصار يندبه ويرثيه رثاء مؤثرا كأمر ما يرثي به صديق
صديقه ، وقد أبي أن يوسده اللحد حتى خرج الدود من أنفه ، وكان
مما رثاه به : « لتندبك المسالك التي سرت فيها في غابة الارز وليكك
الاصبع الذي أشار الينا وباركنا ••• وليندبك الدب والضبع والنمر والفهد
والسبع والاييل والطبي وكل حيوان البرية ••• وليندبك نهر « اولا »
الذي مشينا على ضفافه » وليكك الفرات الطاهر الذي كنا نسقي منه •••
اسمعوني يا شيوخ اوروك : من أجل « انكيدو » ، صاحبي وخلي ابكي
وأنوح نواح الثكلي • انه الفأس الذي في جنبي وقوس يدي والخنجر

الذي في حزامي والمجن الذي يحميني وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي *
لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني * * * يا انكيدو ، يا صاحبي وأخي
الاصفر ، أية سنة من النوم هذه التي غلبتك ! طواك الظلام فلا تسمعي ،
ولكن انكيدو لم يرفع عينيه ، فجس قلبه ولكنه لم ينبض وعند ذلك غطاه
كالعروس وصار يدور حوله ويزأر كالاسد ، وكاللبوة التي أختطف
منها أشبالها ، ويتنف شعره المصفور ويرميه على الارض ، وخلع ثيابه
الزاهية ورمها على الارض كأنها أشياء نجسة ، * وفي الصباح أمر الصناع
والنحاتين أن يصنعوا تمثالا لصديقه وقرب من أجله القرابين وواصل
ندبه وراثه ليل نهار ، وبعد أن أوسده اللحد هام على وجهه في البراري
خائفا من المسير الذي حل بصديقه ، وقام برحلة بعيدة الى جده المسمى
« اوتو - نبشتم » ليسأله عن سر الحياة والموت وكيف استطاع أن يدخل
في مجمع الآلهة وينال الخلود *

رحلة « جلجامش » الى جده « اوتو - نبشتم » (*) :

شد جلجامش الرحال وأخذ طريقه الى جده « اوتو - نبشتم » ،
وقد هام في انبراري يصطاد الحيوانات ، ويأكل لحومها ويكتسي
بجلودها * وبعد سفر شاق طويل كان أول ما بلنه في طريقه جبالا
اسمها « ماشو » يرجح ان تكون جبال « لبنان » ، وتصفها الملحمة بأنها
الجبال التي تعبر من مداخلها الشمس في مسيرتها اليومية ، وتحرس
مجازاتها مخلوقات غريبة ذات هيآت مركبة من البشر والعقارب يبعثون
الرعب وان مجرد نظرتهم الموت * ولما أبصرهم جلجامش خاف وامتقع

لونه ، ولكنه تشجع واقترب منهم ففطن حارس منهم ان جلجامش ثناء
من مادة الآلية وثالثه من مادة البشر ، وبعد أن سأل عن القصد من عبوره
مجاز الجبال وأوضح له جلجامش ذلك سمح له بالعبور من مسالكها التي
يعم الظلام داخلها مسافة اثنتي عشرة ساعة مضاعفة ، واستمر بالسير في
ظلام دامس وبعد أن اقترب من نهايتها أبصر مشاهد عجيبة ، حيث
الاشجار التي تحمل أثمارا من الاحجار الكريمة ، ثم وصل في النهاية الى
ساحل البحر فوجد عنده صاحبة حانة اسمها « سدوري » . ولما أن
شاهدت هذه جلجامش مقبلا وهو يرتدي جلود الحيوانات ، مغبر الوجه
أشعث الشعر ، ارتابت في أمره فأوصدت بابها ، ولكن جلجامش هدها
يكسر الباب ، وبعد أن عرفها بهويته والقصد من مجيئه حاورته قائلة :
« ان كنت حقا جلجامش الذي قتل حارس غابة الارز (خمبايا) وقتل
الاسود ومسك نور السماء وقتله ، فلم ذبلت وجتاك ولاح الغم على
وجهك واستبد بك الحزن وتبدلت هيئتك ؟ » .

فأجابها جلجامش : « كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي ويملاً
الاسى والحزن قلبي وان مصير البشر قد ادرك صاحبي وأخي الاصغر ؟
انه « انكيدو » الذي أحبته قد انتهى الى ما يصير اليه البشر جميعا فبكيته
ليل نهار ، ندبته ستة أيام وسبع ليال ، معللا نفسي بأنه سيعود الى الحياة
من كثرة بكائي ونواحي ، وامتنعت من تسليمه الى القبر حتى خرج الدود
من أنفه . لقد افزعني الموت فهمت على وجهي في البوادي . ان ما حل
بصاحبي يقض مضجعي . واحسرتاه ! لقد غدا صاحبي الذي أحببت
ترايا ، وانا ساضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين . » فيا صاحبة الحانة
أ يكون في وسعي ألا أرى الموت الذي أرهبه ؟ ، فأجابت صاحبة الحانة
« جلجامش ، قائلة له :

« الى اين تسعى يا جلجامش ؟

ان الحياة التي تبغي لن تجد(*)

« حينما خلقت الالهة البشر قدرت الموت عليهم واستأثرت هي بالحياة •

أما انت يا جلجامش فليكن كرشك ملثا على الدوام
وكن مرحا ليل نهار(**)

وأقم الافراح في كل يوم من أيام حياتك
وارقص والعب نهار مساء

« واجعل ثيابك نظيفة زاهية(***)

واغسل رأسك واستحم في الماء ودلل الطفل الذي يمسك بيدك
وأفرح الزوجة التي بين احضانك(****)

وهذا هو نصيب البشرية •

وأخبرت صاحبة احانة جلجامش أيضا بتعذر وصوله الى موضع

« اوتو - نبشتم » حيث تحول دونه مياه بحر الموت ، على انها ارشدته أن

ملاح « اوتو - نبشتم » صادف ان كان موجودا في غابة في ناحية صاحبة

الاحانة ، فأسرع جلجامش الى الغابة ووجد فيها صورا سحرية من

الحجر كان ذلك الملاح يستعين بها في عبور بحر الموت • وبدافع غير

معروف حطمها جلجامش • ووافق الملاح على اصطحاب جلجامش الى موضع

« اوتو - نبشتم » ، وقد ابتدعا طريقة تمكنهما من العبور بأن اقتطع

جلجامش من الغابة مائة وعشرين « مرديا » غلف ازجاجها « كموبها »

بالنحاس وطلاها بالقيز ، وركب الاثنان في السفينة وقطعا في مدى ثلاثة

أيام ما يعادل سفر شهر ونصف الشهر من السفر الاعتيادي • وكان

جلجامش كلما استعمل « مرديا » في دفع السفينة رماه في المياه لثلا تلامس يده مياه الموت ، وبعد أن أتى على المائة والعشرين مرديا نزع ثوبه ونشراه في السفينة ليكون بمثابة الشراع . وهكذا وصل الاثنان الى حيث يقسم « اوتو - نيشتم » الذي سأله عن سبب مجيئه اليه ووجه اليه نفس الاسئلة التي القتها عليه صاحبة الحانة ، كما ان جليجامش اجابه بالاجوبة نفسها . وقد أضاف « اوتو - نيشتم » الى اقواله حمية الموت وعبت ما يسعى اليه الانسان من نيل الخلود :

قال « اوتو - نيشتم » لجليجامش :

« ان الموت قاس لا يرحم .

متى بنينا بيتا يدوم الى الابد ؟

وهل ختمنا عقدا يدوم الى الابد ؟

وهل يقتسم الاخوة ميراثهم ليقبى الى آخر الدهر ؟

وهل تبقى البغضاء في الارض الى الابد ؟

وهل يرتفع النهر ويأتي بالماء على الدوام ؟

والفراشة ! تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس حتى

يحل أجلها .

لم يكن دوام وخلود منذ القدم (*)

ويا ما اعظم الشبه بين النائم والميت الا تبدو عليهما هيئة الموت ؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يميز ما بين العبد والسيد اذا وافهما

الأجل !

« ان آلهة الانوناكي العظام تجتمع مسبقا ومعهم « مامتم » مقررة

الاقدار ، تقدر المصائر . لقد قسموا الحياة والموت ، ولكن الموت لم

يكشفوا عن يومه . »

فَسأَل جَلْجَامَشُ جَدَّهُ كَيْفَ اسْتَطَاعَ هُوَ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى الْخُلُودِ وَهُوَ
بَشَرٌ مِثْلَهُ ، بَلْ إِنَّهُ أَوْفَعُ مِنْهُ . وَتَوَلَّفَ أَجَابَةً ، أَوْتُو - نَبَشْتِمُ ، قِصَّةَ
الطوفان على الوجه الآتي :